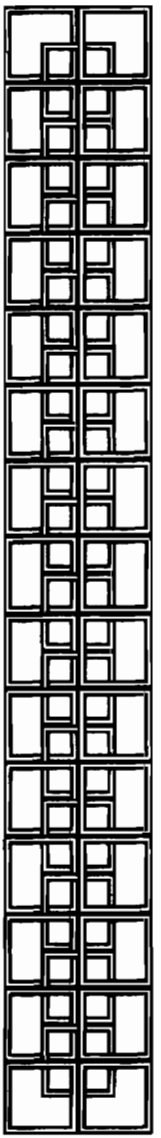

الفصل الثاني
الغايات والأهداف

الفصل الثانى

الغايـات والاهـداف

إن التربية عملية ، أو تركيبة ، اجتماعية معقدة الى حد ما ، يصنعها المجتمع ، وإنها بالنسبة للمجتمع المسلم تركيبة حرة لا تتقيد الا بما جاء به نص من كتاب الله او سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فالمسلمون هم الذين يحددون غاياتها وأهدافها ، وما يتطلبه تحقيقها من وسائل ، وهم أيضا الذين يصممون العمليات التي تحقق هذه الغايات في ضوء فهمهم لنصوص القرآن والسنة التى تحدد طبيعة الإنسان ، وتحدد القيم الرفيعة التى ينبغى أن يحققها المجتمع المسلم والمعايير الخلقية التى تحكم سلوك أفراده ، وتضع الإطار العام لما ينبغى وما لا ينبغى فعله للوصول إلى هذه الغايات والتي ينبني عليها أيضاً المجتمع المسلم كله بمؤسساته .

الغاية والهدف :

وتنطلق هذه الدراسة من مفهوم لغايات التربية يفرق بينها وبين الأهداف الخاصة للتربية ، فالغاية هي الشيء ذو القيمة الذي ينتهي إليه كل سعي ، والذي يستحق أن يتمسك به مجتمع المسلمين كلهم ، يحققه أفراده ، في جميع مستوياتهم العمرية ، وفى كل البلاد والأزمنة ، وفي شتى ظروف حياتهم ، يحفظ لهم كيانهم ، ويجعل حياتهم سعيدة على أساس أن الرسول مبعوث للناس كافة لقول الله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (سبأ : ٢٨)، وتصديقاً لكتابه حيث يقرر ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فأعبدون ﴾ (الأنبياء: ١٢) وعلى أساس أن الحياة بالنسبة للمجتمع المسلم حياة الدنيا ، وحياة الآخرة ؛ وهذه

نقطة يتميز بها الاسلام على غيره من الأديان أو العقائد ؛ فكثير من غير المسلمين يقولون ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون ﴾ (الجاثية ، ٢٤) أما المسلم فيقول ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ (البقرة : ٢٠١) حين يقول غيره ﴿ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ﴾ (البقرة : ٢٠٠) .

وكذلك يصح أن نقول إن الغاية بالمعنى السابق هي الهدف من كل الأهداف ، وهي النقطة التي تلتقي عندها جميع شؤون التربية ، ومنها تتفرع أحوالها ، ويتفرع من هذه الغاية غايات تمكينية تابعة ثم أهداف قومية بالضرورة ، وتختلف هذه الأهداف القومية باختلاف العُصور والمجتمعات وفق تصورات هذه المجتمعات وظروفها ، ومع ذلك تظل الغاية النهائية ، والغايات التابعة التى تمكنها هي واحدة لكل الأمم الإسلامية حاكمة للأهداف القومية ، ولذلك نقول إن الأهداف القومية أو الإقليمية تتدرج فيما تحققه للفرد لتمكنه من تحقيق الغايات ، التى هى بمثابة المعايير الخلقية التى تبرر أهداف التربية فى ضوئها وتقرر صلاحية الوسائل عن طريقها .

كذلك يصح أن نقول هنا إن غاية التربية فى القرآن والسنة هى غاية الدين الإسلامى ، وهى بذلك تختلف عن غاية الشريعة أو عن مقاصد الشريعة ، كما ذكرها الشاطبى ، إختلاف الأصل عن الفرع ، أو اختلاف غاية كل الشئ عن غاية جزء من أجزائه ؛ ذلك لأن الشريعة جزء من الدين ، لقوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ (الشورى : ١٣) ؛ ولقوله تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ (المائدة : ٤٨) ، فدين الله واحد لكل الأمم ، بما يناسب كل أمة فى زمانها .

الأهداف الفرعية تتنوع بتنوع ظروف الأمم ، فهي أهداف معاشية ، وهي تلك

المهارات الوجدانية والمعرفية والنفس حركية التي تمكن الفرد من أن يعيش ويتعامل مع الآخرين من أفراد المجتمع أخذاً وعطاء مستفيداً من أهداف أو مهارات أخرى اكتسبها، نستطيع أن نسميها أهداف محتوى ، وأهداف طريقة . ونعني بأهداف المحتوى تلك العلوم والفنون التي يحقق بها الفرد كسبا لمعاشه ، أو لمادة علمية ، أو فنية ؛ اما أهداف الطريقة فنعنى بها ما يحقق للفرد اكتساب السلوك الذي يتعلم به العلم أو يحصل به الفن ، ويفيد منهما في معاشه .

تنبع الغايات والأهداف من وجهات النظر التى نرتئيها عن الإنسان ، وحاجات الناس فى الحاضر والمستقبل ، وعن أدوارهم فى المجتمع ؛ فما هى مرئيات القرآن عن الإنسان ؟

الإنسان فى القرآن والسنة * :

فى عبارات مجملة نقول الانسان فى القرآن مخلوق كريم فضّله الله على كثير من خلقه ، وقال ﴿ ولقد كرّمنا بنىٓ آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (الاسراء : ٧٠) .

خلقه حراً مزوداً باستعدادات خاصة تجعله يدرك وجود الخالق ، ووحدانيته ، فيعبده ، فيحافظ على الحرية ؛ ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ والتين والزيتون • وطور سينين • وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ (التين : ١-٤) .

يفسر محمد الطاهر بن عاشور هذه الآيات بقوله : حسن التقويم أكمله وأليقه بنوع الإنسان ، وهذا يقتضى أنه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات ،

* هذه فكرة مختصرة عن الإنسان فى القرآن والسنة تمهيداً لبيان غاية التربية ، وهى مقدمة تفصيلا فى كتاب آخر .

ويتضح ذلك فى تعديل القوى الظاهرة والباطنة ، بحيث لاتكون إحدى قواه موقعة له فيما يفسده ، ولا يعوق بعض قواه بعضها الآخر عن أداء وظيفته ، فأفادت الآية أن الله كوَّن الإنسان تكوينا ذاتيا متناسبا وما خلق له نوعه من الإعداد لنظامه وحضارته . وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر فى ذلك عند الله تعالى ، ولا جديراً بأن يقسم عليه ، إذ لا أثر له فى إصلاح النفس ، وإصلاح غيره ، والإصلاح فى الأرض ؛ وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم (إنّ الله لاينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) [1] .

ثم قال : القسم يدل على أن التقويم تقويم خفى ... ، فلذلك ناسب أن يحقق بالتوكيد ؛ لأن تصرفات معظم الناس فى عقائدهم جارية على حالة تشبه من ينكرون أنهم خلقوا على الفطرة أحراراً مزودين باستعدادات تجعلهم يدركون وجود الخالق ووحدانيته فيعبدونه ، فيحافظون على هذه الحرية [2] .هذه فطرة يؤكدها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يولد الولد على الفطرة ، ثم يكون أبواه هما اللذان يهودناه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمةُ بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء) .

كذلك يشير القرآن إلى أن النفس الإنسانية تلقت فى تكوينها الأولى الإحساس بالخير والشر ﴿ ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ (الشمس : ٧ ، ٨) ، ويشير إلى أن الله وهب الانسان ملكة اللغة والتعبير بالرمز ووهبه الحواس الظاهرة والعقل بدليل قوله تعالى ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ (الرحمن : ١-٤) وقوله ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (النحل : ٧٨) وأنه زوده أيضا

١- محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ، الدار التوفيقية للطبع ١٩٨٤ ، ص ٤٢٣ .
٢- المرجع نفسه ، ص ٤٢٣ .

ببصيرة أخلاقية [1] بدليل قوله تعالى ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة • ولو ألقى معاذيره ﴾ (القيامة : ١٤) .

وإذا ما وقفنا أمام القيمة الأخلاقية فإنه يبدو لنا أن القرآن لا ينظر إلى الطبيعة الإنسانية على أنها شريرة فى أصلها ، ولا على أنها فاسدة فساداً عضالاً ، بل على العكس من ذلك ؛ فالإنسان مفطور على الخير ، قادر على الاختيار ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ ولم يهلك من الناس بعد هذا سوى الجاحدين ، الذين لا يؤدون شعائر دينهم ، ولا يعملون الصالحات ؛ ودليل ذلك قوله ﴿ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ؛ هؤلاء الجاحدون ﴿الذين لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون﴾ (الاعراف : ١٧٩) [2] .

فالأمر فى حياة الإنسان إذن أمر أختيارى حر دنيوى ، لاعلوى ، وهو راجع إلى استخدامنا الحسن أو السىء لملكاتنا العليا ، وهى ملكات يزكى تثقيفها النفس ، كما يدسيها ويطمسها إهمالها ؛ ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (الشمس : ٩- ١٠) [3] .

الإنسان أيضا كائن اجتماعى بالمعنى الواسع لكلمة مجتمع ، وهو الشعور بالأخوة الانسانية ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ (الحجرات : ١٣) .

١- محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ، ص ٢٨ .

٢- محمد عبد الله دراز : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

٣- المرجع نفسه ، ص ٢٩ .

جملة القول إن الانسان مفطور على الحرية بتوحيد الله ، قادر بما زوده الله به من استعدادات على إدراك أنه ربه ، وخالقه ، ورازقه ؛ وأنه رب العالمين ؛ وهو قادرٌ على تزكية هذا الإحساس فى نفسه والعمل بمقتضاه .

وليس معنى لفظ رب فى هذا السياق أن الله هو المالك والسيد فقط ، بل فيه معنى التربية والإنماء ، وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان فى نفسه وفى الآفاق منه عز وجل ، فليس فى الكون متصرف بالإيجاد والإشقاء والإسعاد سواه ، [1] ولذلك فهو مولاه ، وأفضل قرينة تقوم على حقيقة ذلك هى الآيات المحكمة فى سورة الأعراف التى تقول : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ (الاعراف : ١٧٢ - ١٧٤) .

هذا المعنى الشامل للتوحيد، حصيلته أن الانسان حر الاختيار حر الإرادة ، مسئول عن هذا الاختيار ومحاسب عليه ؛ هذه الحرية تدور مع التوحيد حيث يدور ، فهو منبعها ومستقرها ، فلا حرية للإنسان وهو خاضع لغير الله ، ولا توحيد بإكراه .

وبذلك نعلم أن طلب التوحيد والسعى له أمر فطرى مركوز فى الجبلة البشرية ، حتى قال كثير من علماء الإسلام : إن معرفة الإله الواحد كائنة فى النفوس أو شائعة فى الأجيال والعصور ، وأنه لذلك لم يعذر أهل الشرك فى مُدد الفتر ، التى لم تجىء فيها رسل للأمم . [2] فكل إنسان يشعر بفطرته أن ثمة واحداً قد نظم هذا العالم ودبره، لا يمكن أن يشابه الممكنات فى شئ من صفاتها ، فليس بجسم ولا عرض ، ولا

١- الشيخ محمد عبده : فاتحة الكتاب ، القاهرة ، ١٣٨ هـ ص ١٩ .

٢- محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير جـ١٧ ، ص ٣٣٠ .

محدود ولا متحيز ، ولا يستطاع إدراكه إلا بآثاره الشاخصة ، وهو غير قابل للحلول ولا للصعود ، ولا للنزول [1] .

نعم ، ربما قال إنسان إنه لو كان التوحيد فطرياً لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا فى تصور ءالهتهم ، فذهبوا مذاهب شتى ، حتى لا تكاد تجد تشابها بين ءالهتهم . وهذا قول مباين لمقتضى الفطرة من وجوه ؛ منها أن منشأ ذلك الاختلاف هو أن الإنسان يعتمد فى تصوره وتفكيره على ما يقع تحت حواسه من الكائنات ، ويكاد ينكر ما ليس له فى ذهنه صورة ولا حدود محصورة إذا اقتصر على تلك الحواس ؛ ودليل ذلك ما قصه الله فى شأن معاندى أهل الكتاب ، حيث قال سبحانه " يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات " [2] .

معنى التوحيد :

قال الامام محمد عبده " التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين ... وهو أول ما نزل القرآن لأجله " [3] .

التوحيد نوعان : توحيد فى المعرفة والاثبات ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ؛ وتوحيد فى الطلب والقصد ، وهو توحيد الإلهية والعبادة ؛ وهذان هما ركيزتا الحرية .

١- عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة ، كتاب الهلال ، العدد ١٨ ، ص ١٦ ، ١٧ .

٢- عبد العزيز جاويش : المرجع السابق ، ص ١٦ ، ١٧ .

٣- الشيخ محمد عبده : فاتحة الكتاب ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

كل سورة فى القرآن متضمنة لنوعى التوحيد شاهدة به ، داعية إليه ؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وذلك هو التوحيد العلمى الخبرى ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه ، وذلك هو التوحيد الإرادى الطلبى ؛ وإما أمر ونهى وإلزام بطاعة أوامره ونهيه ، وذلك هو حقوق التوحيد ومكملاته ؛ وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا . " [1] ، وهنا نفرق بين التوحيد والعبادة ، فهى طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل ، ولذا قال القرطبى أصل العبادة التذلل والخضوع ؛ وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى ... وقال العماد بن كثير ، وعبادته هى طاعته بفعل المأمور وترك المحظور ... " [2] .

---

١ ، ٢ - الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : فتح المجيد فى شرح كتاب التوحيد ، ص١٤ ، ١٥.

غاية التربية

إحياء هذه الفطرة بمعنى التوحيد أو إنماؤها هو غاية التربية فى الإسلام ، والفطرة هى ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به ، أو هى الهيئة التى فى نفس الإنسان ، التى هى مُعِدَّة ومُهيئة لأن يميز بها مصنوعات الله ، ويستدل بها على ربه ، ويعرف شرائعه . فهى ما خلقه الله عليه جسداً وعقلاً ، فمشى الإنسان على رجلين فطرة جسدية ... واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية ؛ ولذلك فإن وصف الاسلام بأنه ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ (الروم : ٣٠) معناه أن أصل الاعتقاد فيه جار على الفطرة ، وأن الله خلق الناس سالمة عقولهم مما ينافى توحيد الله ، وأن ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلا من جراء التلقى والتعود ؛ وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (يولد الولد على الفطرة ثم يكون أبواه هما اللذان يهودناه أو ينصرانه أو يمجسانه ...) [١] وبذلك تكون الفطرة هى التوحيد ، وهو أهم ما جاء لأجله الدين [٢] .

وقد عبر القرآن عن العود إلى الفطرة وتنميتها بلفظين إثنين وردا كثيراً فيه ؛ هما التذكر ، والتزكى ، فاللفظ الأول يعنى أن يتذكر الإنسان ما فطر عليه من توحيد وأدلته ، ويتنبه إلى ما وهبه الله من حرية فى الاختيار وفى الإرادة ، فيحافظ عليها ، وهذا هو الحد الأدنى للجهد التربوى . أما التزكى فيعنى تنمية هذا التوحيد وتخليصه من شوائب العبودية لغير الله تعالى فى كل شىء يتصل بالإنسان ؛ فلا يرى منعماً

١- محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير جـ١٧ ، ص ٣٣٠ .

٢- الشيخ محمد عبده : فاتحة الكتاب ١٩، كتاب التحرير ، ١٣٨٢هـ .

عليه إلا الله ، ولا سلطـــان فوق الله ﴿ هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ (الكهف : ٤٤) .

جاءت هذه الغاية صريحة فى توجيه الله لنبيه فى بداية الرسالة وفى ثنايا معاملته لإبن أم مكتوم الضرير الفقير ، وتوجيهه لمن جاء إلى الرسول من وجهاء قريش فى اللحظة نفسها فيقول ﴿عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يَّذكر فتنفعه الذكرى ، أما من أستغنى . فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى .... كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ...﴾ (عبس : ١- ١٢) . ويتكرر التوكيد فى سورة المدثر بنفس الصيغة ، ثم بصيغ أخرى كثيرة ، منها وصف الدعوة الإسلامية بقوله : ﴿إن هذه تذكـرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ (الإنسان : ٢٩) ، (والمزمل : ١٩) ثم يُحدِّث عن القـــرآن ويحدد رسالة الرسل جميعا بقوله ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ (الحاقة: ٤٨) ﴿ فذكر فإنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ (الغاشية :٢١) .

أما اللفظ الثانى فقد جاء صريحا بصيغة الحض والترغيب فى خطاب موسى عليه السلام لفرعون ، وهو ﴿ فـــقل هل لك إلى أن تزكىً ﴾ (النازعات : ١٨) وبصيغة التقرير لكل الناس بقوله : ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير ﴾ (فاطر : ١٨) .

هذه الغاية نعبر عنها فى لغة علوم الدين أحيانا بلفظ « التوحيد » ، وهى عقيدة وسلوك لأن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ؛ وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحِّد محبوب يفضِّله ، ولا معبود يخشاه سوى الله الواحد الفرد؛ لأن التوحيد باللسان فقط قليل الجدوى ، فالتوحيد الخالص حب لا يقبل الشركة وحرية لا يذل فيها الانسان لشئ فهو عبد الله فقط ، يرى النعمة كلها منه [١] ، وينبغى أن

١- أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين ، كتاب أسرار الزكاة ، ص ٣٨٧ .

نعبر عن هذه الغاية فى مجال التربية بوضعها فى مصطلح عملى يضعها فى إطارها الحياتى ويترجمها إلى سلوكيات تبرز حقيقة التوحيد ، وهو أن يرى الانسان الله رباً أحداً صمداً رازقا مهيمنا ومجازياً ، وألا يخضع فى حركته إلا له وحده مصداقا للآية الكريمة التى قالها النبى صلى الله عليه وسلم فى صدر خطابه لقيصر الروم ﴿قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ؛ فإن تولوافقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (آل عمران : ٦٤) وهكذا نسميها غاية الحرية المنضبطة المستنيرة ، وسنذكرها إما بلفظ الحرية أو التوحيد أو كليهما معاً ومقصدنا بهما هو الفطرة .

فمن المعلوم كما سيأتى بعد أن الحرية لا تعنى مطلق الإرادة ومطلق الحركة لكل فرد دون ضوابط تهدى هذه الإرادة ، وتنظم هذه الحركة ، لكيلا تهدم هذه الإرادة صاحبها أو تحجب حرية من يعيشون معه ، ولكيلا تتعارض حركاتهم ، وبهذا جاء المنهج أو جاءت الشريعة الاسلامية .

التوحيد هو الحرية المستنيرة لأنها تقوم على الوحى ، يعنى يستمد الإنسان أساسها وضوابطها من الله - أعلم العالمين وأحكم الحاكمين - برضى نفسه ، وأختيار عقله ، دون إكراه وليست من صنع واحد من بنى الإنسان فيكون له الفضل .

التوحيد أو الحرية المستنيرة المنضبطة هو غاية التربية في الاسلام : هو الحرية الخالصة من قيود البشر ، من القيود التي تعوق أو تحد من تفكير الإنسان ، وحركته ، وفعله ، واتخاذه قراره عن رضى ذاتي . والحرية المنضبطة بمعني التي لها حدودها التي تحفظها لصاحبها وللآخرين ، وهي حدود رسمها الله ورتب علي هذه الحدود الجزاء .

هذه الغاية تتميز بسمتين : أنها عامة أو كلية ، تصلح غاية للناس جميعا ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبعوث للناس كافة ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الانبياء ، ١٩٧) ، وأنها تكون غاية لكل ماقبلها ، وليست وسيلة لغاية بعدها ؛ فسلوك الإنسان يختلف عن سلوك الحيوان من حيث الغاية ، فالحيوان لا يهدف لغاية أقصى من الوجود الفطري . أما الوجود عند الانسان فليس هدفا في حد ذاته ، وإلا كان وجوداً استهلاكيا ، يستهلك نفسه بنفسه ، وقد كره الله اتخاذ الحياة - مجرد الحياة - هدفا في حد ذاتها بقوله في معرض ذم اليهود وبعض المشركين ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ (البقرة ، ٩٦) .

معنى الحرية فى القرآن :

الحرية هي انطلاق الارادة ومسؤولية الاختيار ؛ بمعنى أن يكون الإنسان وحده هو المسؤول عن عمله ، المحاسَب عليه ثواباً وعقاباً ، لا يحمل أحد عنه تبعة مسعاه ، ولا يفوت بغير جزاء .

الحرية بهذا المعنى هي الأمانة التي تميز بها الانسان وحده على سائر مخلوقات الله ، والتي جاءت في القرآن واضحة محددة بقوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولا ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (الأحزاب : ٧٢-٧٣) .

الناظر إلى المقابلة بين جزاء الطائفتين اللتين وردتا فى الآية الأخيرة ؛ الطائفة التى تنكرت للأمانة ولم تف بحقها ، وهم المنافقون والمشركون ، وتلك التى رعتها وقامت بحقها وهم المؤمنون ؛ يدرك أن هذه الأمانة هى التوحيد وما يتكلفة الإنسان فى

الإقرار به والالتزام بما يقتضيه من فعل وترك ؛ ولذلك كان الجزاء .

" فكل الكائنات عدا الانسان مُسيَّرة بمقتضى سنن كونية تخضع لها على وجه التسخير والإمتثال ، دون تحمل لتبعة ما تعمل ؛ فلو أن السموات قذفت الأرض بالصواعق ، وأمسكت ماء السحب فأتلفت الزرع والضرع من جدب وظمأ ، أو لو أنها جاءت بالغيث فأحيت الأرض من موتها ... لما كانت بحيث تسأل عن شيء من هذا ومثله " [1] ، وقد أفاضت بنت الشاطىء في بيان المعنى المقصود بالأمانة ، وقد تناولت وجهات نظر المفسرين تناولا علميا منطقيا ولغويا . وانتهت إلى " هذه الأمانة هي الابتلاء بتبعة التكليف وحرية الارادة ومسئولية الاختيار" [2] ؛ ولا تكليف بغير إقرار بوحدانية الله ، الذى شرع الدين ووضع المنهاج .

ويورد ابن كثير تأييداً لذلك المعنى قول ابن جرير الطبري في تفسير الآية عن وهب ، قال ابن زيد " إن الله تعالى عرض عليهن - يعني السموات والأرض والجبال - الأمانة ، أي أن يفترض عليهن الدين ، ويجعل لهن ثواباً وعقاباً ، ويستأمنهن على الدين ، فقلن لا ، نحن مُسخرات لأمرك ، لا نريد ثوابا ولا عقابا ، وعرض الله تبارك وتعالى على آدم ، فقال بين أذني وعاتقي ، فقال الله تعالى له ، أما اذا تحملت هذا فسأعينك " [3] ، ومعنى يفترض عليه الدين ، أي يفترض عليه ملك أمره ، فيجزي بما يختار ، خيراً إن أحسن ، وشراً إن أساء ، ويؤكد ذلك قول أهل اللغة ، ومنهم " شمَر " حيث يقول " يدين الرجل أمره أي يملك ؛ وأنشد بيت أبى ذؤيب " أُدان وأنبأه الأولون بأن المُدان ملىٌّ وفىٌّ[4] وهذا يتفق ومعنى الآية " إنا لمدينون " التي قالها أصحاب الجنة ، بمعنى أنهم أحرار مجزون على أعمالهم ، ويتفق أيضا مع ما

---

١ ، ٢- بنت الشاطىء : « القرآن وقضايا الإنسان » ، ص ٧٢ .

٣- عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير : « تفسير القرآن العظيم » ، جـ٣ ص ٥٢٣ .

٤- ابن منظور المصرى : لسان العرب ص ١٤٦٥ .

جاءت به كلمة الدين في القرآن ، وهو الحساب والجزاء والمكافأة ، ويتفق أيضا مع أصل من أصول الدين ، وهو أن الله خلق السموات والأرض بالحق ، ولم يخلقها عبثا ، فهو الديان ، أي الحاكم القاضي ، ويتفق أيضا مع قول ابن عمر في تفسير آية الأمانة بقوله " عرضت على آدم الطاعة والمعصية ، وعُرِّف ثواب الطاعة وعقاب المعصية " [1] . وهل يطيع ويعصي إلا الحر ؟ ويفسر الرازي الأمانة " ألا يختار لنفسه إلا ما هو الانفع والأصلح له في الدين والدنيا ، وألا يقدم بسبب الشهوة والغضب على ما يضره في الآخرة " .

" هذه الحرية ، أو هذه الأمانة ، حملها الإنسان ، مطلق الانسان ، تحقيقا لذاته ، وممارسة لخلافته في الأرض ، ولو كان قد قبل التسخير لأعفاه الله من المسؤلية والحساب ، ولكنه أبى إلا أن يحتمل أمانة إنسانيته ، وإنْ جهل خطرها ، وقصَّر في الوفاء التام بكل حقوقها ، ﴿وكان الانسان ظلوما جهولا﴾ [2] (الأحزاب : ٧٢) .

ولا يعني قصور إدراك الانسان لتبعة الأمانة - أى لقبول التوحيد وأداء تكاليفة على خير وجه - أو تقصيره في آداء حقها على الوجه الأكمل أن يؤثر جانب السلامة ، فيشفق من حمل الأمانة ، ويأباها ، بل لا بأس عليه من مخاطر الابتلاء ، وعثرات الجهل ، فإنما العبرة بصدق النية ويقظة الضمير ، وصحة الإيمان ، وهنا تقع وظيفة التربية في تنشئة الأطفال والشباب على الحرية المنضبطة المستنيرة أو أداء الأمانة ، ويتبين عبء المربين في سياسة النشء بحيث يكونون أهلا لحرية الارادة ، ومسؤولية الاختيار ، " ومجال التوبة مفتوح أمام الانسان كبيرا أو صغيرا ، الذي يتعثر ويخطىء فتصهره التجربة ، ويهتدي بالخطأ إلى طريق الحق " [3] .

١- عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير : « المرجع السابق ، ص ٥٢٤ .

٢ ، ٣- بنت الشاطىء المرجع السابق ، ص ٧٣ - ٧٤ .

كيف يكون التوحيد هو الحرية المنضبطة المستنيرة ؟

يظن بعض الناس أن تكون الحرية حيث لا قيد ؛ ولكن لا تنعدم القيود إلا إذا عاش الانسان وحده ، مالكاً لقوة يسيطر بها على بيئته من حوله ، لا يشاركه حيوان ولا جماد ، ولا يشاركه أحد من البشر ؟ وهل يعيش إنسان وحده؟ .

لو نظرت كيف تنشأ القيود لوجدتها تفرض على الفرد ممن حوله ، أو من صاحب سلطة أكبر من سلطته ، أو سلطان أشمل ؛ لكنه حتى وإن ملك السلطان والسلطة المضادة ، لا يغنيه سلطانه عمن حوله . ولا تغنيه قوته من ضعفه ولا من قصور ذاته ، ولهذا يحتاج للآخرين يستعبدهم ويستعبدونه أو يتعاونون ، وهكذا إذا عاش الانسان في مجتمع ، تقيد بحدود هذا المجتمع ، وبعناصره ، وهي رفاقه من بني الانسان والطبيعة من حوله ، بما فيها من حيوان وجماد ، سواء تحرك ، أو سكن ، إذن من يضع هذه الحدود بين الرفاق ليحفظ لكل منهم حريته ؟ أهو وحده ؟ أم رفاقه ؟ أم كلهم جميعا ؟ أم صاحب سلطان من رفاقه ؟ .

نادرا ما يضع المرء حدوده لنفسه دون منازع حتى وإن كان دكتاتورا ، وإنما يضعها مع أيّ من هؤلاء حوله ، سواء اشترك اشتراكا فعليا معهم ، أو ناب عنهم جميعا فريق منهم ، وعندئذ فهو ليس حراً الحرية المطلقة ، ولذلك يبحث عن الحرية العادلة المثلى التي تعطيه بقدر ما تأخذ منه ، هذه الحرية العادلة بعيدة المنال إن لم يقبل حلاً وسطا بين مصلحته ومصالح الآخرين ، وتدخل في ذلك عوامل كثيرة ، فقد يكون شركاؤه في المجتمع أقل إدراكا للحقائق أو أكثر منه ، أو أقل تعقلا للأمور وحكمة أو أكثر منه ، وربما تعارضت غاياتهم وحاجاتهم وتباينت .

الحلول الوسيطة تخضع أيضا لصاحب السلطان الأقوى علماً أو نفوذا أو جسماً ... إلخ . وفي قليل من الأحيان للحق ، ومن هنا لا تكون الحرية مثلى عادلة إلا إذا

وُضعت حدودها أو ضوابطها من غير ذي مصلحة عندك ولا عند رفاقك ، ووضعت من غير ذي حاجة الى غيره جميعا ، ولا تكون عادلة إلا من صاحب إدراك شامل لجميع أمور الحياة ، وصاحب حكمة بالغة تعدل بين الجميع ، وصاحب سلطان لا يعتمد على غيره ولا من حوله ، وإنما يستمد قوته من ذاته ولا يضره انصراف أحد عنه ، ولا ينفعه قربه منه ، يحبك بقدر حبك للحرية لك وللآخرين .

هذا بالنسبة للبشر كمال شبيه بالمحال ، ولهذا بينَّ القرآن أن حبَّ الله وتوحيده ، ثم الرضى بحكمه ، عن تقدير هذه الصفات الحسنى في ذاته ، والخضوع لله في وضع هذه الحدود بين الناس هو مفتاح الحرية نفسها ؛ لأن هذه الشروط والصفات السالفة لا تتوفر إلا في ذات الله .

وهكذا جاء قول الله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إنَّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ . (الذاريات : ٥٦) . وفي معنى هذه الآية قال الزجاج " المعنى ما خلقتهم إلا لأدعوهم إلى عبادتي، وأنا مُريدُ للعبادة منهم ؛ وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ممن يكفر به، ولو كان خلقهم ليجبرهم على العبادة لكانوا كلهم عُبَّاداً مؤمنين . وقال الأزهري وهذا قول أهل السنة والجماعة " [1] .

فالله هو العليم ، أحاط بكل شيء ، وهو الحكيم ، وهو القادر ، له جنود السموات و الأرض ، وهو الغني عن العالمين ، لا تنفعه طاعة المطيع ، ولا تضره معصية العاصي ، ولذلك يقول : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ، ولا يرضي لعبادة الكفر ، وإن تشكرُوا يرضه لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم، فينبئكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ (الزمر : ٧) . بمعنى إن يرفض

١- ابن منظور : " لسان العرب " ، ص ٢٧٧٧ .

الناس الخضوع لله ، ومن ثم لا يتبعون منهاجه ، ولا يرضون حدوده وضوابطه فان ذلك لا يضر الله شيئا ، وهو لا يرضاه لهم لأن خضوعهم لغير منهج الله ، لبشر أو غيره فيه ظلم ضار بهم ؛ ولذلك يعتب الله على من رضي بغير الحرية واستكان للظلم ، فيقول ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ ﴾ (. النساء: ٩٧) . ظلم النفس هو الخضوع والذلة لغير الله .

في هذ المعنى السابق ، وفي بيان تفسير الآية التي قررت هذه الحرية الناشئة عن عبادة الله وتوحيده [١] يقول الفخر الرازي [٢] ، " الله غني عن العباد ، وهو من صفاته الكرم ، فهو الكريم ، والكرم إفادة ما ينبغي لا لعوض ، ومن أعطى وطلب عوضا فهو ليس بكريم ، حتى المدح والثواب والتخالص عن الذمة كلها عوض ، ولهذا يستحيل أن يفعل الله فعلا لغرض أو يأمرك بفعل لغرض لذاته ؛ لأنه لو فعل شيئا لغرض لكان حصول ذلك الغرض أولى من عدم حصوله ، فحينئذ يستفيد بفعل ذلك الشيء حصول تلك الأولوية ، ولو لم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الأولوية ، فيكون ناقصا بذاته ، مستكملا بغيره وهذا محال ، والله أكرم ، لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية ، ولأن له الابتداء في كل كرم ، وإحسانه وكرمه غير مشوب بتقصير " .

ويقول : مفسرا الآية نفسها " يقدم الله للانسان في المجتمع ، ويخاطبه في جماعة أن هذه القضية هي المصباح المنير الذي تسعد في ضوئه حياته وآخرته ، ولذلك يحتاج الى تصديق بها ثم عمل ، وجهاد لها " . هذه الغاية هي ما جاء من أجلها محمد ﷺ ،

١- المقصود الآية ٥٦ من سورة الزاريات .

٢- الفخر الرازى : تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص١٦ .

وما جاء من أجلها النبيون جميعا ، وهي واضحة جلية البرهان ، وما على المعلم والمعلمين جميعا إلى يوم الدين إلا أن يذكروا الناس بها دائما دون إكراه، ﴿ فذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (الذاريات ، ٥٥) . فليس من المعقول أن يكون طريق الحرية غير الحرية ذاتها ، وهنا توضع العبادة في سياق آخر يكشف جانباً ناصعا من جوانبها ، وهو أن هذه الغاية غاية عبادة الله وحده لا شريك له ، صاحب الخلق و الأمر ، صاحب الجزاء ، هي لمصلحة الناس ، ولِخير بني آدم ولسعادة المجتمع ، وهي مفتاح الحرية ، وهي قضية تحرير الإنسان من كل ما يمنع حركته أو يحول دون سكنه ، أو يقيد عقله أو يغُل يده ، فلا يخضع لأي شيء سوى الله ؛ لأن خضوعه لسوى الله سيكون في مقابل شيء آخر .أما عبادة الله فهي للإنسان ولمجتمعه ، لا لعلة قصدها الله منه ، ولا لفائدة تعود على الله منه ، وإنما هي حريته أولا وآخرا . وذلك مفاد قوله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ فالخلق كله ، وحواسه وعقله ، وسعيه لا لشيء إلا لحريته ، عن طريق تحرره من الخضوع لأي مخلوق ، ولذلك يقول الله ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

الحرية حق وواجب :

ثم يستطرد الفخر الرازي مشيرا الى حرية اتخاذ هذه الحرية غاية فيقول " وفي اختصاص الجن والإنس من بين المخلوقات بالذكر - في هذه الآية - إشارة الى أنهما المخلوقان اللذان لهما إرادة عاملة ، فيؤمنان أو يكفران ، ويطيعان أو يعصيان ، ومن هنا وقع عليهما التكليف ، وحق عليهما الحساب والجزاء بمقتضى ما يعملان " ثم يقول " فما يريده الله سبحانه وتعالى من العبادة هو لذات الناس ، وللخير الذي يحصلونه من الحرية والإيمان بواهب الحرية ، وللجزاء الذي ينالونه بطاعتهم لله ، وولائهم له ، فليست هذه العبادة ، وهذا الولاء مما ينتفع به الله سبحانه وتعالى بشيء منه ، ﴿ ان الله غني عن العالمين ﴾ (العنكبوت : ٦) ... فإن أعمال خلقه خيرا أو شرا لا تجلب

له خيرا ولا شرا . إنه سبحانه فوق المؤثرات خيرها وشرها ، لأن التأثر عارض ، يعرض للمخلوقات التي تقبل بطبيعتها الزيادة والنقصان ، أما الله سبحانه فهو الكامل الكمال المطلق الذي لا يقبل زيادة ولا نقصانا .

الحريـة في الاسلام حق وتكليف قبل كل شيء ، إنها الفعل والترك بنية الامتثال لله ، إنها " التوحيد الخالص " ، إنها التخلص من الرغب والرهب إلا في الله ، إنها تتطلب ليس عدم الاضرار بالآخرين فقط ، وإنما تتطلب العمل على نفعهم أيضا ، انها حق كفله لك الله ، وواجب عليك أن تحفظها وتدعمها لك وللآخرين وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب لعامله على مصر " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " .

هذه الحرية حق للعباد على الله أى مؤكدة ومتحققة إذا ما أدوا حق الله عليهم وهو التوحيد ، وذلك مفهوم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه معاذ بن جبل بقوله " قال يا معاذ بن جبل . قلت لبيك رسول الله وسعديك . قال هل تدرى ما حق الله على العباد ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم . قال فإنَّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ثم سار ساعة ثم قال يامعاذ بن جبل قلت لبيك رسول الله وسعديك . قال هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ، قال قلت الله ورسوله أعلم - قال أن لا يعذبهم [1] .

التوحيد أو الحرية مسؤولية فردية

هذه الحرية أو التوحيد - في نظر الاسلام - مسؤولية كل فرد ، ومسؤولية الجماعة نحو أفرادها ، وقد عبر الله جل جلالة عن الجانب الفردي بقوله ﴿ ألم أعهد إليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عـــدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط

١- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى : « صحيح مسلم بشرح النووى » جـ ١ ، ص ٢٣٢ .

مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا ، أفلم تكونوا تعقلون ؟ ﴾ (يس: ٦٠-٦٢) .فقد عهد الله الى بني آدم ان يعبدوه وحده ، أي ألا يتخذوا دليلا للفعل والترك إلا منه سبحانه ، بمعنى أوصاهم و وغرس في فطرتهم ، وزودهم بلاستعدادات ، ومنها العقل ، لمعرفة هذه العبادة والقيام بها ، وأخذ منهم موثقا على ذلك ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ (الأعراف : ١٧٢-١٧٣) ، وما دامت هذه الغاية مسؤولية فردية ، وجب أن يتحمل الفرد مسؤوليتها ، ويتحمل جهد فهمهما والكشف عنها ، وعناء الاستدلال عليها ، والوفاء بها ، ومن هنا نشأ التكليف ، مؤكدا بقول الله جل وعلا ، ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة • ولو ألقى معاذيره ﴾ (القيامة: ١٣-١٤) فالحرية الحقيقية تعني من الناحية العقلية أن للفرد هدفه الخاص ومشكلته الخاصة ، يفكر لنفسه بمعنى أنه لا يستطيع أن يوسع ما يعرفه ، أو يصححه ، أو يعرفه في البداية معرفة واعية إلا اذا قام بملاحظته ملاحظة خاصة ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ (العنكبوت : ٢٠) ، وتأمله ، وشكله في إطار ما في ضوء مقترحاته ، ثم اختبر هذه المقترحات ، فالتفكير مسألة فردية كهضم الطعام ليكون غذاء للجسم ، ولا يفيد الجسم إلا إذا قامت أعضاؤه ذاته كالأمعاء والقلب والأوعية الدموية بإعداده وتمثيله وتنقيته .[1]

وكذلك ما يتعدى التفكير من فعل ونزوع إذا قام على اقتناع ورغبة فردية أو من تلقاء النفس ، فالفرد محاسب عليه ، وإلا فهو ظلم لأن فرديته قد حجبت ، وقد حذر الله تعالى من ذلك الظلم بقوله للرسول صلى الله عليه وسلم وللأمة الاسلامية

١- جون ديوى : الديمقراطية « ترجمة نظمى لوقا ، مكتبة الانجلو المصرية » .

من بعـــده " أفـانت تكره الناس حـتى يكونوا مـؤمنين " (يونس : ٩٩) ، فـإخـضـاع الناس للرأي أو للفعل وإن كان نافعاً لهم كما يراه غيرهم ، حاكما أو معلما ، ظلم ، يهـدر أهم شيء تميز به الانســـان وهو حريته ، حرية الفكر ، حرية الاختيـار ، وينجم عنه بلبلـة الفكر والتكلف ، وضيـاع الدافعيـة الأصيلة ، وينشـأ عنه الخضوع لغير اللـه والانقيـاد الخانع لآخرين .

وقد حض الله الفرد على الإستقلال بتفكيره وموضوعيته بقوله ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم • إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ (الإسـراء : ٣٦). وفي ذلك يقول الرســـول صلى الله عليه وسلم " لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت " فهو الانســـان يرى بنفسه هذه الغاية في كل ما حوله ، وما فوقه وما تحته ، وفي نفسه ، ولذلك يقول الله تعالى في سورة الذاريات أيضـــا التي دعت الى هذه الحرية ، ﴿ فورب السماء والارض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون ﴾ (الذاريات : ٢٣) ، فهي قضية فرديـــة واضحة ، واقعة وقوعاً مماثلا لوجود الانسان نفسه ، لا تحتـاج إلى قهر أو قسر ، وقد اختار الله النطق للتعريف بصدق القضية على المستوى الفردي ، لأن النطق من الفرد ، وهو يدل على أن وراءه انسـانا ذا حس وإدراك ، وأنه اذا غابت عنه المحسًات والمدركات حوله ، فلن يغيب عنه الاحسـاس بوجوده هو ، وادراك أنه موجود [١] .

التوحيد أو الحرية مسؤولية اجتماعية :

أما الجانب الاجتماعي لهذه المسؤولية فقد وضحه الله في إرسال الرسل بعامة ، وفي السياق الذي جاءت فيه هذه الآيات الناطقة بغاية الحرية بخاصة ﴿ وما خلقت الجن

١- عبد الكريم الخطيب : " التفسير القرآني للقرآن جـ٢٩ .

والإنس إلا ليعبدون ﴾ حيث جاءت هذه الآيات خاتمة لسورة الذاريات التي قصت حكايات أقوام كثيرين في مجتمعات متنوعة ، نعموا بنعم مادية كثيرة ، ومع ذلك ظلموا أنفسهم ، بانتقاص حرية بعضهم بعضا ، أو أذلال بعضهم بعضا ، بشتى أنواع السلوك والمذاهب ، مختلفين على الحق ، فبعث الله الرسل ، يعلمون أقوامهم ، ويذكرونهم بمسؤولية السادة الحاكمين منهم ، وهذا هو الجانب الاجتماعي ، حيث يتولى المجتمع بمؤسساته عامة ، والمعلمين خاصة تبصير الناس بهذه الحرية ، وتربيتهم عليها وفق ظروف مجتمعاتهم .

جاءت هذه السورة موجهة الحديث الى العام المطلق ، إلى الناس جميعا [1] فإن شاءوا استمعوا وانتفعوا ، وإن شاؤا مضوا في الإعراض والنفور . القضية الأولى في الوجود التي أشارت إليها هذه السورة هي أن الله موجود ، وأنه استعمر الناس في الدنيا ، ويبعثهم في الآخرة ، ويجازيهم بأعمالهم . ومعنى الله موجود ، أنه لا خضوع إلا له ، وأنه حدد منهجا لحرية البشر ، والعدل ، وأنه سيحاسبهم على أعمالهم نحو حريتهم وحرية الآخرين . ولكن الناس مختلفون على هذه القضية ، وهم في تفاعل ، يؤثر بعضهم في بعض ، وهنا يظهر أثر المؤسسات الاجتماعية كالمدارس والنوادي ، والأسواق ، والعلماء ، وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولذلك يقول الله تعالى في السورة ذاتها ﴿ والسماء ذات الحبك إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك ، قتل الخراصون ﴾ (الذاريات : ٧-١٠) فالناس بين مؤمنين مصدقين بما وعدوا ، يحفظون حريتهم وحرية الآخرين ، وبين مكذبين بهذا الوعد منكرين له ، فيعرضون عن منهج الله ، يظلمون أنفسهم وإخوانهم بأن يمنحوا أنفسهم حقوقا ، ويحرموها غيرهم قسراً أو إغراء وتخويفا . اتخذ ذلك صوراً مختلفة كما تحكيه السورة ، فهولاء قوم يأتون الفاحشة ، وهي اعتداء من بعضهم على حرية بعضهم الاخر بتحريف وظيفة

١- عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق .

فطرية طبيعية من الكائن الحي ، وهذا فرعون يستعبد الناس ويخضعهم بقوته لمصالحه وسلطانه بغيا وعدوانا ، وهؤلاء قوم هود انتقصوا حريتهم بالخضوع لأوثان ، واستعلى بعضهم على بعض ، وأخضعوهم لأهوائهم ، أما ثمود فقد استضعف كبراؤهم ضعفاءهم ، وقوم نوح عبدوا أصنامهم .

كان سادة هذه المجتمعات أو كبراؤهم ، وذوو النفوذ منهم ، يخرصون الأشياء " يعني يقدرونها بحدس وظن ، دون استناد إلى علم محقق ، لأن الفرد منهم يخرص الشيء كما يقول عبد الكريم الخطيب ، يعني يصفه للآخرين أو يشرحه دون تحري الصدق واليقين ، لأنه يكون في الغالب مغمورا في شدة تغطي على مشاعره ، وتستولي على تفكيره ، شدة من جهل أو انفعال ، او انبهار بحدث ، يكون ساهيا ، غافلاً ، لا يتعقل ، ولا يتدبر [1] فيضلل الآخرين ويسلبهم حريتهم . وهذا ما أشار إليه الله تعالى في السورة نفسها مبينا ما يجري في التفاعل الاجتماعي من السادة المهيمنين على المؤسسات بقوله : ﴿ قتل الخراصون ، الذين هم في غمرة ساهون ، يسألون أيان يوم الدين ﴾ (الذاريات : ١١-١٢) وقد يسوقهم كل ذلك إلى الغفلة عن المحاسبة الذاتية أو من غيرهم ، عنادا واستكبارا بما في أيديهم ، أو في أنفسهم من نعمة الله فيستعبدون الناس ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ (طه : ٧٩) وقليل منهم من يفيق .

مجتمعات أخرى فيها فريق آخر من أصحاب النفوذ والسلطان مصدق بالله واع بالقضية الأولى ، قضية الحرية ، فهم أيضا في تفاعل اجتماعي ، وسماهم الله بالمتقين، عرفوا الحق ، فشكروا ، وقدموا العمل النافع لأنفسهم وللناس ، وشاركوهم أموالهم وأفكارهم عن طواعية ، يطلبون العلم والمعرفة بالبحث الجاد والنظر المتفحص ،

١- عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق .

لا يتبعون الأهواء ، يقدمون العلم الى الناس بصدق ، ولسان حال الواحد منهم يقول ﴿فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ (الشعراء : ١٤٤-١٤٥) .

وظيفة المجتمع تمكين الفرد من الحرية :

هذه الحرية « التوحيد » اتجاه عقلي فضلا عن كونها دالة عدم التقيد الخارجي في الحركات ، فالعقل مصدر الحركة ، وهكذا تترتب عل كل فكرة حركة ، وإلا كانت هذه الفكرة شيئا غير موجود في الواقع ، ثم بالتالي ترتد الحركة الخارجية الواعية إلى عقل فاعلها رجعاً يؤثر في نشاطه الفكري ؛ ولا تنمو الحرية العقلية بدون السماح بحركات الاستكشاف والتجريب والتطبيق .. إلخ ، وهذه مسؤولية المجتمع يوفرها لأفراده ، ومن هنا تنشأ التنوعات الفردية ، وعلى المجتمع أن يستخدم هذه التنوعات في وحدة اجتماعية متناغمة ، وهكذا ، حدد الاسلام طريق هذه الحرية بالاستبصار العقلي ، والكشف ، والملاحظة ، والتجريب المؤدي إليها بدعوته جماعة المسلمين في مواضع كثيرة من القرآن إلى ذلك ، فجاء في سورة الذاريات التي أشرنا إليها تواً ، بعد أن بيَّن الله من يخرص ويضل ، ومن يصدق ويهدي للخير ، قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين • وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات : ٢٠-٢١) ، وقوله مخاطبا الجماعة أيضا ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ (الأعراف : ١٨٥) وقوله ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ (الغاشية ١٧-٢٢) فهذه طريق الحرية إلى غاية حرة ، وهي إزاحة كل القيود إلا أن يكون الانسان سيد نفسه بالعلم ، يتيحه له المجتمع .

هنا تجدر الإشارة الى أن الله قدّم الكشف العقلي والاكتشاف والاقتناع عن رؤية طريقاً لهذه الحرية ، وأحله محل الاجبار المذهبى ، وإثبات العقائد الموروثة أو المتلقاة ، والبرهنة عليها ، دون نظر ، وباستخدام القهر والتخويف ، أو بتشجيع التقليد الأعمى، أو بالسير على سنن الآباء دون تفكير وتعقل ، ولذلك قال الله جل شأنه في مواضع كثيرة ما ينفر الجماعة من الاجبار المذهبى ، والاستتباع الأعمى ، منها قوله تعالى مبينا عاقبة أولياء الأمور ، من رؤساء وعلماء ، الذين يفعلون ذلك ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألاساء مايزرون ﴾ (النحل : ٢٥) ثم يبين تخاذلهم يوم الحساب ، وتخليهم عمن أضلوهم ، ووقوعهم مع رعيتهم في العذاب الشديد ، وذلك بقوله : ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، و أسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ (سبأ ٣١:٣٣) .

الحرية الحقيقية " التوحيد " نتاج طرح التقليد والتدبر في العادات المألوفة ، والنظر في المعايير ، فاذا ما سيطرت على المجتمع عادات عرفية ، ثم طغت ، أو قدست كبتت هذه الحرية أو أضعفتها ، وليس ذلك لمصلحة الجماعة ، ولذلك يقول الله جل وعلا رداً على الكفار الذين قالوا ﴿ حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ بقوله ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾ (المائدة : ١٠٤) .

اذن فالحرية التي ابتغاها الاسلام للانسان غاية هي أن ينطلق تفكيره وعمله وفعله وقوله في إطار منهج الله ، مفتاح الحرية ، غير خاضع لأحد ، متعاونا في ذلك مع رفاقه ، على أن يحرس هذا الانطلاق بمزيد من الحرية يتيحها له المجتمع إيمانا من

المجتمع ومنه بأن مصدر القوة والقدرة على التفكير والحركة والسكون هو الله فلا يخشى أحداً . ويفسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لابن عباس ، وهو صبي صغير : " يا غلام ألا أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت جميعا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء ، ما ضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . جفت الأقلام وطويت الصحف " [1] . وتأكد ذلك الدور الذي يقوم به قادة المجتمع لتوجيه الناس للحرية بما رواه ابن عباس أيضا حين قال : " قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم " ما شاء الله وشئت يا رسول الله ، " فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أجعلتني لله نداً ؟ ، ما شاء الله وحده " رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجه . وعلق عليه ابن كثير في تفسيره بقوله " وهذا كله صيانة لجانب التوحيد " [2] ، وقال الزجاج أيضا في قوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ أي إياك نطيع الطاعة التي نخضع معها ونوحِّد " ، وأورد ابن كثير في ذلك رأى ابن عباس معززا بقوله " هذا يعني " إياك نوحد ونخاف ونرجوك يا ربنا لا غيرك " [3] ثم قال " والعبادة في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف .. وهي تبرؤ من الشرك وتبرؤ من الحول والقوة " .

الحرية " التوحيد " غاية عالمية :

هذه الحرية غاية لتربية الناس جميعا ، وليست قاصرة على المسلمين ، وفق قول الله تعالى ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم

١- عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير : " تفسير القرآن العظيم " جـ١ ، ص ٢٥ . ٢٦ .

٢- عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير : المرجع السابق ، ص ٢٥ . ٢٦ .

٣- عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير : المرجع السابق ، ص ٢٥ . ٢٦ .

تتقون ﴾ (البقرة : ٢١) ويفسر مجمع البحوث الاسلامية تلك الآية بقوله " كلمة الناس عامة تشمل أمة الدعوة المكلفين : من آمن منهم ومن لم يؤمن ، من الموجودين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن سيوحد بعدهم الى يوم القيامة ، لعموم الرسالة المحمدية ، ويكون الأمر بقوله اعبدوا ربكم بالنسبة للمؤمنين ، بمعنى داوموا على عبادته ، وبالنسبة الى غيرهم ، بمعنى حصلوا العبادة وأنشئوها " [١] . فلا تقيدوا حركتكم إلا بأوامره ونواهيه .

العبادة المطلوبة هي الطاعة المبنية على حب الله ، لا يشاركه فيها غيره ، لانفراده بالخلق والربوبية وكامل الانعام ، مع القدرة الشاملة وعظيم السلطان . وليست العبادة مقصورة على نحو الصلاة والصوم والزكاة ، بل تشمل كل عمل يعمل لنفع الناس والحيوانات إذا أريد به وجه الله .

ويقول ابن كثير " هذه العبادة فيها النِّصف لكل إنسان مهما تباينت عقيدته ولونه ومذهبه ، وإلى ذلك يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم • ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا • ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ . (آل عمران : ٥٦) ثم يفسر الآية قائلا : هذه الكلمة السواء عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها " [٢] . فنخضع جميعا لذات الله ، ولا يسجد بعضنا لبعض ، أي لا يخضع بعضنا لهوى البعض الآخر . إنما الله هو كافل لحرية كل منا بمنهاجه [٣] .

هذه الكلمة ذاتها في الآية ذاتها كانت صلب خطاب النبي صلى الله عليه وسلم الى قيصر الروم ، ونصه " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل

١- مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف : التفسير الوسيط ، الحزب الأول ، ص ٢٦ .

٢- عماد الدين أبو الفدا اسسماعيل بن كثير : المرجع السابق ، جـ ١، ص ٢٥، ٢٦ .

٣- عماد الدين أبو الفدا اسسماعيل بن كثير : المرجع السابق ، جـ ١، ص ٢٥، ٢٦ .

عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فاسلم تسلم ، واسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " .

هذه الحرية تتطلب من القائمين على منظومة التربية أن ينموا وسائل مراجعة العادات والأعراف ، وتعديل ما درج الناس على تقبله ، وتنقيته من الشوائب ، وإحيائه ، ولا يكون ذلك إلا بتشجيع الأفراد على النظر ، والتفكير الحر ، حيث يكون العقل ، عقل كل فرد ، مستقلا ، فيعمل كل منهم أصيلا ، له اهتماماته ، تتكامل مع اهتمامات الآخرين في إطار التوجيه الاجتماعي ، وهنا ليعي المربون الفاصل الدقيق بين حرية الفرد ، وسيطرة الآخرين ؛ أو بين الدراسة والتجريب ، واتخاذ القرار من جانب ، وبين الحكم العام من جانب آخر ، وأن يتذكر المربون أن هذه الحرية إتجاه فكري عقلي قبل أن تكون حرية حركة أو انتقال .كما أسلفنا ، وهي بذلك لا تنمو إلا بالسماح للعقل الفرد أن يجرب ، ويستكشف ، ويطبق ، ويتساءل ويجيب ، ويقرر ... الخ ، ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق • ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾ (العنكبوت : ٢٠) .

وهنا يحذر الإسلام من فرض نمطية معينة على التفكير ، بل يوجب على القائد والحاكم ، وعلى المعلم ، وعلى كل عالم ، أن يلفت نظر الأفراد في المجتمع ، وفي حجرة الدراسة الى إبدال هذه النمطية الشائعة ، ليحل محلها الاتساق بين الناس ، وأن يكون التشابهُ بينهم بدلاً من التماثل ، وأن ينشأ عن ذلك التآلفُ ووحدةُ المجتمع ، وليتذكر هؤلاء قول الله تعالى ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ (الإسراء : ٨٤) .